منازل القراءة

اللغة الشعرية بوصفها مُدركات معرفية

د. محمد سالم سعد الله*

تعطي التصورات الفلسفية نزعات عقلية لتموضع المعاني في منازل القراءة، وتقوم بصناعة المشهد الفكري للغة التي تعد شكلا من أشكال التواصل، وحقلا معرفيا بديلا للخروج عن المألوف.

إنّ القاسم اللغوي يتسم بصفة الجمعية، ولا يشعر بالتمايز والخصوصية إلا إذا أعيد تشكيله وفقا لإجراءات المشروعية الفردية، التي تحاول التملص من المظهر الجماعي، وتلجأ إلى النص المُشعر بالتمايز، والمحدِّد للخصوصية، والمتفنن بتكثيف المنظور الإنساني الفيزيقي.

ومن خلال ذلك يجري اكتشاف الإنسان لاستقلاليته الذاتية عن صيغ الجماعة، ويبدأ هو بتعيين مواطن التماسك والإتقان ومواطن الضعف والزوال ليلجأ . من ثَّم . إلى إعلان زحزحة العجز، والخروج عن المشكلات اللغوية المألوفة، ويرتقي إلى ميدان المشاركة الفعالة في بناء المشهد الفلسفي الخاص.

يعالج البحث خطين متوازيين في صناعة النص، وتحديد منازل القراءة : (نقد الذات المبدعة، ونقد مسيرة الذات المبدعة)، يدعو الخط الأول إلى البحث الدوغمائي في نقد الذات، ومتابعة النشاط الفلسفي الذي تحمله، ويوجه الخط الثاني إلى البحث الزمني الذي يكشف النقاب عن محنة المعنى بين الحضور والغياب، وبين هذا وذاك سعت الذات إلى تمثل مجهوداتها المعرفية والفكرية في لعبة اللغة، أو بشكل أدق في (جنسية الدال وذهنية المدلول)، وإذا ما تمّ ذلك فإننا سنحصل على أبنية نصية مشبعة بفضاءات

* جامعة الموصل/ كلية الاداب– قسم اللغة العربية

عقدية ومعرفية، لا تقدم نفسها مجاناً، إنما يُراد لها تحليل عقلاني يفك إشكالية الالتباس، ويحرر أزمة المعنى الغائب.

يؤكد بحثنا هذا بعض المسارات التي ينبغي معالجتها في النظر إلى اللغة بشكلها العام، واللغة الشعرية بشكلها الخاص، ويبين أيضا أن هذه اللغة لا تُشكَّل بفعل براءتها المشاعة، ولا بفعل التنظيم الشكلي المحض، وإنما تتشكل بفعل سلطة معرفية تعمل على قيادة مسيرتها.

وقد آثرنا تقسيم البحث على أربعة محاور هي :

١. سلطة النص ونص السلطة.
٢. المطلق الفلسفي ونسبية التضايف.
٣. محاكمة اللغة الشعرية والافتتان بالمقدس.
٤. النفس الإنسانية والإرادة الراديكالية.

تعطي التصورات الفلسفية نزعات عقلية لتموضع المعاني في منازل القراءة، وتقوم بصناعة المشهد الفكري للغة التي تعد شكلا من أشكال التواصل، وحقلا معرفيا بديلا للخروج عن المألوف.

إنّ القاسم اللغوي يتسم بصفة الجمعية، ولا يشعر بالتمايز والخصوصية إلا إذا أعيد تشكيله وفقا لإجراءات المشروعية الفردية، التي تحاول التملص من المظهر الجماعي، وتلجأ إلى النص المُشعر بالتمايز، والمحدِّد للخصوصية، والمتفنن بتكثيف المنظور الإنساني الفيزيقي.

ومن خلال ذلك يجري اكتشاف الإنسان لاستقلاليته الذاتية عن صيغ الجماعة، ويبدأ هو بتعيين مواطن التماسك والإتقان ومواطن الضعف والزوال ليلجأ . من ثَّم . إلى إعلان زحزحة العجز، والخروج عن المشكلات اللغوية المألوفة، ويرتقي إلى ميدان المشاركة الفعالة في بناء المشهد الفلسفي الخاص.

يعالج البحث خطين متوازيين في صناعة النص، وتحديد منازل القراءة: (نقد الذات المبدعة، ونقد مسيرة الذات المبدعة)، يدعو الخط الأول إلى البحث الدوغمائي في نقد الذات، ومتابعة النشاط الفلسفي الذي تحمله، ويوجه الخط الثاني إلى البحث الزمني الذي يكشف النقاب عن محنة المعنى بين الحضور والغياب، وبين هذا وذاك سعت الذات إلى تمثل مجهوداتها المعرفية والفكرية في لعبة اللغة، أو بشكل أدق في (جنسية الدال وذهنية المدلول)، وإذا ما تمّ ذلك فإننا سنحصل على أبنية نصية مشبعة بفضاءات عقدية ومعرفية، لا تقدم نفسها مجاناً، إنما يُراد لها تحليل عقلاني يفك إشكالية الالتباس، ويحرر أزمة المعنى الغائب.

يؤكد بحثنا هذا بعض المسارات التي ينبغي معالجتها في النظر إلى اللغة بشكلها العام، واللغة الشعرية بشكلها الخاص، ويبين أيضا أن هذه اللغة لا تُشكَّل بفعل براءتها المشاعة، ولا بفعل التنظيم الشكلي المحض، وإنما تتشكل بفعل سلطة معرفية تعمل على قيادة مسيرتها.

- سلطة النص ونص السلطة :

مَن المحرك لأبنية النص وأنساقه ؟ مَن المسؤول عن انسيابية المعاني أو عدم انسيابيتها ؟ هل المسؤولية كامنة في السلطة أم في فعل التسلط ؟ أسئلة تدور في فلك استثمار الحقيقة النصية.

إنّ السلطة بوصفها معطى أيديولوجياً، قائمة في كلّ خطاب نقوم به، حتى ولو كان يصدر من موقع خارج السلطة، فهي منغمسة في التاريخ، متجذرة في أعماقه، وهي بفعل التطور الزمني والمكاني تحولت إلى خطاب يدعي العلمية والبراءة، ولذلك كانت ـ أي السلطة ـ تمارس مرجعاً إرهابياً قسرياً مما جعل اللسانيات مع سوسير، وعلم الأدب مع ياكوبسون، والبنيوية مع فوكو، كلّها محاولات لإبعاد التاريخ أو القضاء على أسطورته، فضلا

عن أنّ محاولات بارت التي تعتمد على سيميولوجيا اللذة، أو سيميولوجيا الذات، أو سيميولوجيا الأفكار، هي هروب من السلطة بشتى أشكالها[١].

لقد كانت السلطة لغة طقوسية ذات فاعلية مهيمنة، غايتها الاستحواذ، وهدفها الافتتان، ووسيلتها اللغة، ولهذا كانت تمثل براعة درامية نسبة إلى التصورات العقلية المقنعة التي تحدد بها مناخها الفكري العام.

وبعد أن كان الحديث عن السلطة لا يتم إلا وفقاً لطرائق ملتوية، مثل جعل الخطاب على ألسنة الحيوانات أو باستعمال الصور البلاغية، التي رغم هذه الحيل لا تسلم أحيانا من نهايات مأساوية، أصبح اليوم يشار إليها على أساس التعدد الحضوري في كل خطاب، وقد تأتى ذلك من الإعلاء من شان البنية ومفهومها، الذي ساعد في دراسة الخطاب داخليا من خلال العلاقات الحوارية بين أنظمته وتشكلاته[٢].

وتأتي مهمة النقد في محاكمة النصوص وفقاً لرؤى منهجية، وكشف الآليات التي تختفي وراءها السلطة، وتحاول بوساطتها الاستحواذ على النص بعد تشكله، فضلا عن معاينة الصراع بين الخطابات الموجودة، لأنّ خطاب السلطة هو خطاب العنف والصراع[٣]، ويكتسب الخطاب السلطوي هويات متعددة منها : أيديولوجية، ومنها فلسفية، واجتماعية، وتاريخية،.. إلخ.

إنّ علاقة السلطة بالكلام علاقة وثيقة جداً، لأنّ فعل التلفظ يحمل بطاقات دلالية وسلوكيات ذهنية، حتى غدت اللفظة محطة لتفريغ الممارسة وشحنها، ولهذا سعت السلطة دوماً إلى حماية الكلمة وتمثلها في الوقت نفسه، وفرضت السكوت . أحياناً . إما بالقمع المادي الذي يكشف عن عجز هذا الخطاب على الإقناع العقلاني، وإما عن طريق ابتكار سلسلة من الأبنية

---

[١] ينظر : مدخل لدراسة النص والسلطة، عمر أورخان : ١٣ – ١٤.

[٢] المصدر نفسه : ١٤.

[٣] المصدر نفسه : ١٨.

غير المفهومة، ذات الدلالة الفارغة، التي تتسم . في الغالب . بانعدام الإثبات الدلالي من مثل: الحرب هي السلام، ديكتاتورية البروليتاريا، المحافظ الثوري،... إلخ، بمعنى آخر أنها تقوم بجمع المتناقضات في صيغ واحدة، هدفها تضليل القارىء لا تثقيفه[١]، هذا على صعيد السلطة الأيديولوجية، أما على صعيد السلطة الفلسفية فقد استغلت توجهها اللاعشوائي في صقل اللغة ومنحها صيغة لاهوتية تمارس فعلها بصمت، وتمدد فاعليتها التي اكتسبت فعل التقديس المطلق عبر امتداد الزمن، فالمشروع الفلسفي القائم منذ أفلاطون وحتى حدود الفلسفة النسقية بعد هيجل، كان ينظر إليه على أنه مسلمات كونية، وأنظمة سلطوية لا تقبل المحاكمة، إنها موروثات ممنهجة تقدم آثارا علاجية للفكر البشري عبر امتداد قرونه، وإنطلاقاً من ذلك تبنت الفلسفة غير النسقية . أي بعد مرحلة هيجل . ذلك الطرح محاولة دفع المشروع إلى سيناريوهات إجمالية مع تطلعات الإنسان الذي باتت علاقته تتخذ الندية مع اللغة، فهو السوبرمان– اللساني الجديد، المستبدل للنسق المتناغم بالنسق المعاصر المتسلط اللاقانوني.

وميزة السلطة الفلسفية في تشكيل اللغة هي : الافتتان بسلوك الكلمة، أي متابعة حركة الدوال داخل النص، وبمعنى آخر أنها تمارس فعل التلاعب اللغوي بالكلمات، إذ أصبحت اللغة أداة مروضة بيد فعل التسلط الفلسفي، ومن هنا جاءت محاولات (بيار بورديو) لتفكيك الخطاب السلطوي الفلسفي، وفهم لعبته من خلال الأدوات الرمزية التي تؤدي وظيفتها، وتعطي صفة المشروعية لضمان هيمنة نسق على آخر[٢].

إنّ العلاقة الوثيقة بين السلطة واللغة تتجلى في عناصر الصلات بينها من خلال أشكال من التفاعلات المتبادلة في مستويات متنوعة ضمن

---

[١] المصدر نفسه : ١٩.

[٢] المصدر نفسه : ٢٤.

أوضاع ملموسة، لكلّ من المرسل والمتلقي، وشروط الوضعية الاتصالية التي تُظهر الممارسة اللغوية محور الممارسة الاتصالية ومركزها[١] بوصفها ممارسة اجتماعية،... واصلة بين السلطة والكلمة... وهي أساسا لصالح من يملكون السلطة والنفوذ، وفعل اللغة هو فعل الهوية الثقافية لان مظهرها جماعي، وفعل التسلط الذي يمارس عليها إنّما هو لمظهر ونشاط جماعي، ولذلك فان تحليل علاقة فعل اللغة بفعل التسلط سيقود حتما إلى جانبين مهمين :

الأول : الجانب الشكلي.

الثاني : الجانب المضموني.

يعكس الجانب الأول مهيمنات فعل التسلط بتشكل اللغة الجديدة، من خلال حلية شكلية تكسر القواعد، وتنتزع الاحترام الأسطوري للغة، ويتضح هذا الجانب بشكل كبير في ممارسات (الشكلانيين الروس) الذين حاولوا رسم الشكل الشعري الجديد من خلال تفرقتهم بين اللغة الشعرية الحديثة واللغة المعيارية أولاً، والاهتمام بالمنحى الوظائفي الشكلي للغة ثانياً، واستثمار الحماس الثوري الذي قدّم اللغة على أنّها فريسة يسهل التلاعب بها ثالثاً، أما الجانب الثاني فإنّه يحقق للفعل اللغوي فرصاً ثمينة لممارسة نشاطه من خلال وصفه بأنّه فعل قانوني، ونشاط يهدف إلى تحويل الواقع وفعل مؤسساتي قصدي، فضلا عن أنّه فعل سياقي عرفي، ولكن من نوع آخر[٢].

وقد انتفعت السلطة في علاقتها مع الفعل اللغوي بـ(ثالوث) مهد لها الطريق في عملية تحويل اللغة وتشكيلها، وتتحدد مفاصل هذا الثالوث بما يأتي :

١. الوظيفة الأساسية للغة هي الحِجاج.

---

[١] اللغة والسلطة والاتصال، محمد العلالي : ١٩٥.

[٢] سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي : ١٣٥.

٢. تسعى اللغة إلى تمثل القصد والبرهنة.
٣. تحايث اللغةُ المشروعَ الفلسفي من جانب التركيز على الامتزاج بالوجود.

وبما أنّ فعل الحياة وميكانزماتها قائم على ثنائية الهدم والبناء، فإن الفعل الفكري ومعه الفعل اللغوي قائمان على فعل التشكيل اللغوي، ومع استمرار عملية القراءة تموت لغة وتحيا أخرى، بمعنى أنّ القراءة / التلقي هي تصعيد للوعي تجاه النص، ومن الجدير بالذكر أنّ الفعل الفلسفي " ليس مجرد قول إنما هو خطاب، والخطاب هو عبارة عن توجه القائل بالقول إلى المتلقي بغرض إفهامه مقصوداً معيناً " [١].

ويتطلب تحليل الخطاب " معالجة مجموعة أنظمة تنشط فيه، وتحدد فاعليته إزاء السياق الظرفي نفسه الذي يعمل فيه، ومن خلال ذلك يكتسب حضوره وفاعليته ومعناه، فضلا عن أنّ الملفوظ هو نتيجة مباشرة لنظام لساني يعمل فيه نظام آخر، يتحدد بوصفه مؤسسات : (الأدب، المعرفة، النقد)، ونتيجة لذلك تولد أشكال من (الخطاب) وفق تفاعل النظامين، عبر حضور تأثير جانب معين من تلك المؤسسات لغرض امتلاك الخطاب خصوصيته وكل ذلك يجري داخل شروط التواصل " [٢].

وتوظف السلطة الفلسفية مكونات الخطاب التي تتحدد بـ(المادة اللغوية، والأفكار والمفاهيم، والتصورات المعرفية، والأدوات العقلية، والإحالات المرجعية)، توظف ذلك بوصف الخطاب تشكيلاً ينتظم داخل نظامين، الأول : لساني، والثاني : دلالي براجماتي[٣].

[١] كيف يكون الإبداع الفلسفي إبداعاً لغوياً، طه عبد الرحمن : ١٤.
[٢] المصدر نفسه : ٥٢.
[٣] نقد النقد، محمد الدغمومي : ٥١.

أما على مستوى علاقات الخطاب فإنها تتمحور في إتجاهين[١]:

١. علاقات داخلية : تبقى مشتغلة داخل الخطاب، ومكتفية بعناصره الذاتية النصية.
٢. علاقات حوارية : تشد الخطاب إلى عوامل إنتاجه، وتجعله فعلا خطابياً ديناميا وملتحما بشروط تداولية.

والحاصل فيما ذكر : أنّ السلطة الفلسفية مارست تشكيل اللغة الشعرية من خلال تداعيات صناعة المشهد الفكري المُضمن في النظام اللساني النصي، وأيضاً من خلال سلوكيات معرفية استخدمت مرجعيات من المسار الفلسفي الممتد زمنياً، حتى وصلت إلى ولادات حملت معها تخصصية الحضور، وقيم الإنسانية المعذبة، وألقت بظلها على منازل القُراء، واختلاف مستويات تلقيهم للنص، وسنجد في المفاصل القادمة من البحث كيفية توظيف قضية النفس الإنسانية بصيغ لسانية، بمعنى آخر تقديم فلسفة الجوهر الإنساني، وتلمس إشكالية الحقيقة في لغة نموذجية.

- المطلق الفلسفي ونسبية التضايف :

إنّ تحديد المُناخ الفكري الذي يلف العلاقة بين الفلسفة والأدب، يتطلب رؤية تلك العلاقة بوصفها استشهادات ضمنية لم تتبلور بعد في صعيد المقاييس النقدية المعلنة، لأن الحرج الذي يتبع تلك العلاقة ما زال موجوداً في كشف البنى الماورائية التي تقع في ظلال المعاني، ولذلك الحرج أسباب منها : شخصية، ومنها : نقدية. الشخصية مفادها عدم القدرة على فك الشفرات الفلسفية المُضمّنة في الأعمال الإبداعية، وهذا يشكل (العجز الذاتي) لاكتشاف كنه المعنى، والنقدية منها مفادها رؤية متطرفة تقول بعدّ تضمين التصنيف النصي لمقاييس فلسفية بحتة، وهذه الرؤية تشكل (العجز

[١] المصدر نفسه : ٥٢.

الذهني) الذي لا ينتمي إلى خارطة الفهم الدقيق أولاً، ولا يَقنع بالكنه اللا معلن ثانياً، ولا يدرك أهمية الكيان الفلسفي ثالثاً.

وإذا أمكننا عقد مقارنة بين الكيانين المهيمنين : (الكيان الفلسفي، والكيان اللغوي) سنجد أنّ الكيان اللغوي لم ينضج بعد، لأننا ما زلنا نبحث عن أنساب للمعنى، وما زلنا نقلبه على أوجهه المتعددة البسيطة حيناً، والرائعة حيناً آخر، فضلا عن أن اللغة لم ترسم مقياسها الدقيق الذي يقدم البدائل المنظمة، وقد أوقع هذا الأخير النقد الغربي في فجوات الحديث عن (اللغة داخل اللغة)، بدلا من الحديث عن (اللغة ضد اللغة)، ولغة الحديث الأول تقتضي الدوران في فلك التشكيل اللغوي المحض، والتيه في مدارات لا قرار لها من الأنظمة اللغوية مفرغة المحتوى، هذا إذا قُصد العمل اللغوي لذاته.

أما لغة الحديث الثاني فهي مدار الإبداع والتواصل والابتكار، لأنّ بحث اللغة ضد نفسها أو ضد غيرها يقتضي الحديث في الإمكانيات الجديدة التي ستسهل الأبعاد المعرفية، وستقدم ذاتها بوصفها مشروع اختلاف مع غيرها، وستحدد من ثَّمَ خصوصية كُتّابها من باب (أنا أكتب إذن أنا موجود)، وفي هذا الميدان يشتغل المطلق الفلسفي لاستغلال المتتاليات النصية بتصنيفاتها المختلفة : (العمودي، الأفقي، المحوري، الرأسي، المتعامد، المتقاطع، المتوازي،...)، على أننا لا نسلم باشتغال المطلق الفلسفي بحرية في ذلك، لأنّ العقيدة الفلسفية تحدثت عن آفاقها المختلفة مع اللاهوت الذي ضمن لنفسه ترشيح المطلق، واحتكاره في عصر الأيديولوجيا والعولمة والانتكاسات المعرفية المتعددة الحاصلة من خلال بعض النماذج النصية الغثائية.

ويشكل حضور المطلق اللاهوتي علاقة عكسية مع حضور المطلق الفلسفي، لذا فإنهما لا يجتمعان في صعيد واحد، فالمطلق الفلسفي اللاهوتي

يدعي أنّ اللغة تابعة و(مُسيّرة)، بمعنى آخر : أنّ البناء اللغوي لا يتشكل من صنيع مبدعه، بل ينتظم من عندياته، وهذه الرؤية موغلة في القِدم تمتد إلى (القبلانية : فلسفة التصوف اليهودي)، فضلا عن عصر سيادة الكنيسة في العصور الأوربية الوسطى، أما المطلق الفلسفي فيرى أن اللغة مبدعة و(مُخيّرة)، لكنها ترتسم وفقا لأطر التفكير الإنساني، وتمثل الحقائق الفلسفية التي ناضل الفلاسفة من أجلها.

ويمكن تحديد طبيعة العلاقة بين السلطة الفلسفية وبناء اللغة الشعرية من خلال حركة العلامة وبنائها، لأن " نمط البناء العلامي هو تأكيد للطابع المركب للفعل الإدراكي، الذي يقود الذات المدرِكة إلى التخلص من العالم الخارجي، عبر استيعابه بوصفه قوانيناً، أي تمثله بوصفه سلسلة من النماذج المؤيدة إلى استحضار التجربة عبر وجهها المجرد " [١].

ومن الجدير بالذكر أنّ " كلّ عنصر من عناصر العلامة قابل أن يتحول إلى علامة، أي إلى عنصر استقطاب دلالي يثير حوله مسيرات متنوعة في الإحالة والتدليل، فالعالم الذي تحيل عليه العلامة عالم يتشكل ويتحلل داخل نسيج (السيميائي / السيموزيس)، وما دام كلّ عنصر قابلاً لأن يتحول إلى نقطة ارتكاز تتجسد فيها الوقائع الدلالية، فإنّ النسق العلامي يتحول إلى آلة ضبط آنية منتجة لرقابة داخلية تتحكم في مجموع الدلالات الناتجة عن حركة دلالية ما " [٢].

ولتحديد العلامة وتضييقها أثر في ميدان العلاقة بين الفلسفة وتشكيل اللغة، ومن هنا انبثقت الحاجة إلى ميدان معرفي يُعنى بفلسفة النسق اللغوي، وحركة الدال والمدلول، والنشاط ألتمييزي داخل النص، ولعبة المدلولات اللامتناهية، ونحو ذلك، ولهذا جاءت أبحاث فلسفة اللغة بمدارسها المختلفة

---

[١] المؤول والعلامة والتأويل، سعيد بنكراد : ٥٢.

[٢] المصدر نفسه : ٤٩.

مُضمنة الحديث عن القضايا المطروحة السابقة، وغدت اللغة بوصفها صاحبة المرتبة المُثلى في الفلسفة، لفرط الإيمان بأنّ فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز على اللغة، التي تعبر عن هذا الفهم، ومن اللافت للنظر أنّ تلاقي المصالح المشتركة بين الفلسفة واللغة أصبح سمة غالبة في الفكر المعاصر[1].

وتحاول اللغة أن تبني ذاتها المتعالية من خلال النظر إلى المطلق الفلسفي المتعالي، الذي يؤكد حضور العمليات الفلسفية والنتاجات الذهنية ذات المظهر الفردي في منطق الواقع المتواضع معرفيا، فالفلسفة قد تقدمت زمنياً بعميلة تأكيدها للذات، وبالقناعة التي جعلتها تعترف بنفسها على أنّها الوسيلة المُثلى المتعالية لإدراك الواقع، بهذا المعنى يمكن تأكيد توافق العقل بوصفه (المستودع الفلسفي للإبداع)، والواقع بوصفه (المشروع اللغوي للمفاهيم).

إنّ العلاقة بين المطلق الفلسفي وتشكيل اللغة الشعرية لا يحكمها التمثل المطلق لشرعية التسلط الفلسفي، إنّما هي علاقة تضايفية تتسم بالنسبية، فالارتباط بينها هو ارتباط الكلي بالجزئي، والجوهر بالمادي، والعام بالخاص، واللا منتاهي بالمتناهي، واللا محدود بالمحدود،...، إنّها علاقة (شرعية التضايف) بتوليدية الأنساق وتحويلها، إنها مجمل الالتقاء بين الجهود السلطوية، وصراعات البنى الأيديولوجية الكامنة في نسيج النص.

ويشكل الخطاب الأيديولوجي جزءاً من السلطة الفلسفية، ولذا فإن العلاقة بين الأيديولوجبا وتشكيل اللغة الأدبية، هي علاقة معقدة ثرية وصعبة، لأنّها تتطلب تحليلا يهدف إلى كشف العلاقات المتعددة والمتنوعة والجدلية بين البنية التحتية والبنية الفوقية، وصيغة الأيديولوجيا / الأدب هي الصيغة التي ترى الأدب بوصفه ممارسة أيديولوجية مشروطة، ومن كونه .

---

[1] فلسفة اللغة، بول ريكور : ٥.

أي الأدب . شكلاً من أشكال الأيديولوجيا، وخطاب خصوصي من خطاباتها[١].

والحاصل فيما ذكر : أنّ العلاقة التي تحكم المطلق الفلسفي بتشكيل اللغة الأدبية، هي علاقة (نسبية متضايفة) بمعنى أنّها علاقة تسمح للأنظمة النصية بالاشتغال دون التقيد بالنظام الفلسفي الوافد، فضلا عن أنّ ذلك المطلق الفلسفي يوظف البنى الأيديولوجية بممارسة نشاطها في تشكيل اللغة أيضاً، من خلال استغلال التقارب الموضوعي بين الأيديولوجيا والأدب، والارتباط الوثيق الكائن بينهما، وسنحاول في المفصل القادم الدخول في بنية اللغة الشعرية، لتقديم بعض المُدركات التي تسهم في إيجاد تلك اللغة.

- محاكمة اللغة الشعرية والافتتان بالمقدس :

يقتضي تحليل اللغة الشعرية وكشف أسس تشكيلها، الدخول إلى باطن ذهنية النص بوصف اللغة الشعرية عالما منفصلا عن العالم الخارجي على مستوى الإجراء المنهجي لا المعرفي، لان الانفصال على المستوى الإجراء المعرفي يأخذ النص بعيدا إلى دائرة ضيقة غايتها اللغة، وهدفها اللغة أيضا.

وقد غدا ديدن الناقد المعاصر ضرورة التوغل في العمق، حتى فرض العالم البرجوازي على النقاد أن يحصروا اهتماماتهم في النص وحسب لا خارجه، بدافع تبني قيم الحداثة وما بعدها، ولهذه التوجهات أسس تقتضي صناعة النقد والقرار، بمعنى الاشتغال بذاتيات النص لأجل النص وحسب، وهذا برنامج ضخم يهدف إلى هيمنة سلطة البنية على الإنسان، ويهدف كذلك إلى جعل الإبداع منحصراً في حركة البنى، وتمثل القيم الإيديولوجية، وعزل نشاط الإبداع عن الذات المنتجة.

---

[١] الأدب والأيديولوجيا، عمار بلحسن : ٢٣.

ولهذا خضعت بنى اللغة الشعرية لبرامج توجيهية تعبوية، منها ما كان تجريدياً، ومنها ما كان نخبوياً، ومنها ما كان فردياً، ومنها ما كان تمرديا على قواعد اللغة وأنظمتها، ويمكننا التنبيه أنّ البراءة التي تلف قدسية بناء اللغة، قد تلاشت مع البحث العلمي الجاد والرصين، الذي يسند لنفسه ممارسة (الوعي اللامرئي)، وترك شعارات (الوعي المرئي) المتمثلة بصيغ (تكتيكية) تخدم التوجهات الأيديولوجية الفردية، وما إفرازات المناهج ما بعد البنيوية إلاّ مثالا على ذلك.

إنّ العلاقة التي تربط بين السلطة الفلسفية مع تشكيل اللغة الشعرية، هي ما يمكن أن نطلق عليه (قوة العلاقة)، ونعني بذلك قوة الارتباط الجينالوجي، إذ تصبح النقاط المجهولة في ميدان الفلسفة معلومة في تشكيل البنية الشعرية، والنقاط الألسنية الغائبة في داخل اللغة الشعرية تتحول بتدخل الوعي إلى نقاط معلومة، وبهذا تصبح (قوة العلاقة) نوعاً من الأسر المتبادل.

إنّ المطلق الفلسفي بعلاقته مع اللغة الشعرية التي وصفت بأنها نوع من الأسر المتبادل، لا تعني الإيمان بالحقيقة الفلسفية المطلقة . في الغالب . لأنّ الإيمان يعني هنا الإيمان بالغيب بـ(الميتافيزيقا)، وهذا مدعاة للتأمل، لأنّ تشكل البنية الشعرية الحديثة قد انفصلت عن الميتافيزيقا منذ اغترابها في الموروث الميتافيزيقي، وأعلنت منذ ذلك حقيقة معقلنة مفادها : انفصام العلاقة بين الخالق والمخلوق، بين الناص والنص، بين المبدع والنتاج، وهذا ـ كما نعلم . أساس قيام المناهج النقدية الحديثة، ابتداء بالبنيوية، مرورا بمناهج التحليل اللغوي : (السلوكية، والوظيفية، والتوليدية والتحويلية)، وانتهاء بما بعد البنيوية.

ومن الجدير بالذكر أنّ علاقة النص بالميتافيزيقا هي علاقة عمودية، وعلاقته بالفيزيقا هي علاقة أفقية، وبينهما تناسب عكسي، فمتى ما اضطربت العلاقة الأولى انتظمت الثانية، والعكس صحيح أيضاً.

وبسبب الضياع الذي عانته بنى اللغة الشعرية بانفصامها عن خالقها، استطاعت السلطة الفلسفية الولوج إلى ميدانها لتقديم مجموعات متعددة من (الفسيفساء) لتشكيل اللغة الجديدة القائمة على روح العصر.

ومن الملاحظ أننا لا نعني بما سبق الخروج على القواعد اللغوية، فهذا يقتضي التجديد والتحول، إنما هو التشكيل وإعادة التموضع، وصياغة عمليات انسيابية لفهم المعطيات الجديدة، ولنا أن نتساءل : لِمَ كلّ هذا التركيز على بنية اللغة الشعرية ؟.

إنّ التحديد يكتسب التباين بين مدرسة وأخرى، لكن الإطار العام للإجابة يتحدد بدور هذه البنية التفاعلي في نسيج شبكة النص المتداخل، فبين هذه البنية وبنية المضمون (العاطفة والفكر)، وبنية الإيقاع (الإطار والتكوين) علائق دقيقة متداخلة، كما أنها تمثل مركزاً مكثفاً يتقاطع فيه كلّ مكونات النص الشعري وخصائصه الأسلوبية فيها، وبوجودها يكون مضمون النص (شعرياً) ويكون إيقاعه (شعرياً) كذلك[١].

ولبنية اللغة الشعرية إشكالياتها الذاتية . بوصفها روح النص . وهي إشكاليات ثنائية تتمثل في تجاذب طرفي (التخييل والتركيب) وتقاطعهما في مركز توتري، فالتمثيل هو مجال بنية اللغة الشعرية الداخلي، وبه تتكشف حركة الذات الشاعرة الخاصة على مستوى الصورة الشعرية واستخدام الرمز، أما التركيب فيمثل بنية اللغة الشعرية الخارجي، وقانون الضرورة الذي ينكشف بوساطة التخييل[٢].

---

[١] مدخل إلى بنية اللغة الشعرية، علوي الهاشمي : ٤٠.

[٢] المصدر نفسه : ٤١.

وقد استطاعت بنية اللغة الشعرية من تخطي عتبة اللغة أحياناً، من خلال الخروج عن مهيمنات سلطة القواعد اللغوية، وأخذت منحى (انتهاك المحارم) في التحرر من تقديس الأسلاف، فسلكت مسلكا تجريديا أخذ بزمام اللغة إلى اتجاه أشد صرامة من مجرد إعلان الثورة على اللغة حسب.

ويمكن القول أنّ هذا المسلك أخذ حظه في النجاح عن طريق قانون العدول (الانحراف، الإنزياح) الذي يعد المحرك لتحولات النص من سكون البنية إلى فضاء الأسلوب، ومن حيز اللغة التقريرية إلى حيز كلّ من : (التعبير، فالتصوير، فالترميز)، وهي تحولات تدريجية متطورة، ينكشف بواسطتها قانون الهدم والبناء ذو الطبيعة الحية في النص الشعري الواحد وفي التجربة الشعرية العامة[١].

وتتسم عملية محاكمة اللغة الشعرية بالضرورة الدلالية، لأنها تمثل قانون الحياة، وتقع على عاتقها جهة تحولات العصر ومسؤولياتها، فضلا عن دورها في الخروج من صنمية تقديس اللغة، فلا وجود لسلطة المقدس في اللغة . على صعيد القواعد أعني في أنظمتها لا مضمونها .، لأنّ اللغة من صفاتها التشكل والتحول، وهما صنوان لفعل المقدس، وقد استغل فعل التسلط إضفاء فعل التقديس على مؤسسات اللغة، ليتسنى له تمرير الانتماءات المتداعية بصفة شعورية أو غير شعورية، وبهذا أُدخِلت طبيعة هذه اللغة ضمن ثنائية الحركة والسكون، وهي " ثنائية من شأنها أن تتجسد في النص الشعري بشطره إلى بنيتين : بنية داخلية عميقة تتصف بالحركة والاضطراب، وبنية خارجية سطحية تتصف بالسكون والثبات، وليست المعاناة الشعرية في جوهرها سوى إقامة معادلة حقيقة، وتحالف ناضج بين طرفي الإشكالية الثنائية " [٢].

---

[١] المصدر نفسه : ٤١.

[٢] المصدر نفسه : ٤٣.

والحاصل فيما ذكر : أنّ تحليل اللغة الشعرية ومحاكمتها، يقتضي البحث في أبستيمات معينة لواقع تشكل المفاهيم في بنية النص، وعدم الافتتان بواقع ثبوتية الأنظمة اللغوية، بمعنى عدم التسليم المطلق بمعجمية الدلالة، وسكونية نحو اللغة، ولغة النحو.

- النفس الإنسانية والإرادة الراديكالية :

إنّ المشاهد التي وظفت السلطة الفلسفية في تشكيل لغتها الشعرية كثيرة، وكثيرة جداً، وحسبنا الاقتصار . هنا . على نماذج منحت نفسها حق اللجوء إلى راديكالية ذات خصوصية، تتسم بالتسليم حيناً، وبالتمرد حيناً آخر.

أول شاهد على محاكمتنا للغة الشعرية هو نص الفيلسوف (ابن سينا) القصيدة العينيّة[١]، التي مطلعها :

هَبطتْ إليكَ منَ المَحلِ الأرفعِ
وَرقاءُ ذاتُ تعززٍ وتمنعِ

وتمثل الاتجاه الأفلاطوني، من كون النفس الإنسانية قديمة غير حادثة، وهي قائمة بنفسها غير محتاجة للجسم.

حوت القصيدة العينية قيماً رئيسة، ومنظومة فلسفية، يمكن تحديدها بالآتي :

١. أصل النفس الإنسانية.
٢. منزلة النفس الإنسانية.
٣. معاد النفس الإنسانية.
٤. الحكمة من خلق النفس الإنسانية.

إنّ النفس وفقاً لتصور ابن سينا تشكل طبيعة روحانية، والجسم يشكل الطبيعة المادية، ومن هنا جاء تخير الدال المناسب بتشكيل جملة القول

---

[١] رسائل ابن سينا، الرسالة العينية.

الشعري وهو : (ورقاء) الطائر المحبوس في قفص، التواق إلى الخلاص، بمعنى أنّ أداة السلطة الفلسفية كان لها دور مهم في انتقاء الدوال المناسبة للمدلولات المُرادة.

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها
في ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت
بين المعالم والطلول الخُضعِ

جاء الترميز هنا لمبدأ التكليف ولإظهار صفة العبودية الحقّة، فالهاء رمز الهبوط من الأعلى (السماء)، والميم رمز للمركز (المبدأ / الموطن)، والثاء رمز الثقيل وهو الجسم الذي قرنت النفس فيه، إنّ تدفق الصور وحركتها ناتج من تمثل بنية اللغة الشعرية في الموضع هنا، وذلك لإظهار روح الأثر الشعري، وتأسيس النبض المحمل بدفقات المعنى.

فلأي شيء أهبطت من شامخ
وعال إلى قعر الحضيض الأوضعِ
إن كان أرسلها الإله لحكمة
طويت عن الفذ اللبيب الأروعِ
فهبوطها إن كان ضربة لازب
لتكون سامعة بما لم تسمعِ

تتساءل اللغة عن الحكمة من خلق النفس الإنسانية ووجودها، وتشير عن طريق مجموعة من العلامات أنّ العقل عاجز محدود لا يدل إلا على عجز محدود مثله، وقوته الاستدلالية محدودة، نسبية غير مطلقة، قد تصيب وقد تخطىء، فكيف يدرك الإنسان (المحدود)، الخالق (غير المحدود)، وكيف يدرك النسبي المطلق.

إنّ اللغة الشعرية البانية لعينية ابن سينا، سلكت مسارين لتحديد مشروعية خلق النفس الإنسانية، وهما :

١. مسار الاستنتاج : من خلال إدراك كنه الحقيقة (وهذا المسار مرتبط مع الاستنباط).
٢. مسار الاستقرار : من خلال تتبع مسيرة الحقيقة (وهذا المسار مرتبط مع الفهم الواقعي).

والمثال الثاني هو نص (الحلاج) شهدي التصوف كما وصف، والشاعر الوجداني الصوفي كما عرف، وصاحب الآراء المتطرفة، نقتبس من شعره هذه الأبيات الآتية[١]:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
نحن مذ كنا على عهد الهوى
تضرب الأمثال للناس بنا
فإذا أبصرته أبصرتني
وإذا أبصرته أبصرتنا
أيّها السائل عن قصتنا
لو ترانا لم تفرق بيننا
روحه روحي وروحي روحه
من رأى روحين حلّت بدنا

إنّ السلطة الفلسفية في تشكيل هذه اللغة الشعرية، عكست وحدة الحلول عند الحلاج، وهي وحدة روحية لا وحدة ذاتية، فالحلول حاصل بين الروح الإلهية والروح الإنسانية، لا بين الذات الإلهية وذات الحلاج، لذا فهو اتحاد عناصر روحية لا اتحاد ذوات.

---

[١] شرح ديوان الحلاج، تحقيق : كامل الشيبي.

في هذه الأبيات روح متوازنة، وإيقاع منسجم، تغذيه لحظات من الإنزياح اللغوي نحو التآلف والتناسق بين الأبنية والأنساق، إنها بنية الإيقاع التي لفّت الدلالة في انسيابية جمالية، أعطت القصد، وتخلت عن سكونية الدال المعجمي.

والمثال الثالث نص (أبي العلاء المعري) شاعر التطلع والتشاؤم والفناء، بنى لغته الشعرية بظواهر التشكك والحيرة والقلق، التي عدّها من صفات العقول المفكرة المتمردة، فهو باحث دائب عن الحقيقة والحق، إنها مسيرة الشك في كل شيء حتى المسلمات بها :

يسُوسُونَ النّاسَ بغيرِ علمٍ

وينفذُ أمرهُم ويُقالُ سَاسَه

فَأفٍ منَ الحياةِ وأفٍ مني

ومن زمنٍ رئاستُه خَساسَه

وفي نصه المشهور الذي يناقش فيه مشكلة الحياة والموت، والفناء والبقاء، تصوير للجسد اللغوي الناضج المتشكل بفعل سلطته الفلسفية[١]:

غيرُ مُجدٍ في ملتي واعتقادي

نوح باكٍ ولا ترنم شادي

ومن النص الحديث لدينا شاهدان : (بدر شاكر السياب، وخليل حاوي) وظفا معطيات (الإنثروبولوجيا) وهو العلم الذي يدرس الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً، ويهتم بتقديم رؤية شمولية للمجتمعات الإنسانية جميعها، ويحاول إعادة تنظيم الشكل الجماعي البشري، فضلا عن دراسة السلوك الفردي وتمظهراته[٢]، ومن أهم مباحثه الأسطورة وفعلها المسمى بـ(الأسطرة)، لأنها ترى أنّ الإنسان قد عبَّر عن موقفه من الكون ومظاهره والحياة وتحولاتها

---

[١] ديوان أبي العلاء المعري، دار صادر.

[٢] ينظر : الأنثروبولوجيا، محمد الجواهري.

بشكل عبارات لغوية أطلق عليها (الأسطورة)، وبنية اللغة المتشكلة في الأسطورة تتسم باتساع الخيال وروعته، والجنوح في الزمان والمكان المطلقين.

لقد تشكلت لغة السياب من غنى مضامين الأسطورة ودلالاتها، في الإفصاح عن المواقف الإنسانية، ورأى فيها الملاذ الذي يمد بطاقة شعرية، تعبر عن حالة انكسار الضمير الإنساني، وما يعتريه من تناقضات وأزمات حضارية، لهذا لم يكن نزوعه نحوها هروباً من تصوير الواقع ومشاكله، إنما كان مسلك في الإبداع، وطريقة في تصوير النص الشعري.

لقد تعامل السياب مع دال (المطر) تعاملا رمزياً أسطورياً، ارتفع به من كونه أحد عناصر الطبيعة، إلى كونه نقطة سحرية دالة تعطي دفقها الشعري في النص، وتجعله ذا دلالات مختلفة، فقد حَمّل (المطر) رموز الثورة على القهر الاجتماعي والسياسي، ورمز البعث والحياة، ورمز الأماني بالعطاء الذي يتمناه للعراق،... إلخ.

وقد تطور نص السياب فكرة انتقال الإنسان من مرحلة السحر إلى مرحلة الدين، وهي مرحلة متطورة، فأصبح ينشد رضا (الإله) بدلا من رضا (الطبيعة)، وأصبحت طقوسه السحرية : الشعائر والأدعية والقرابين، وبات يخشى على نفسه من غضب الإله، لأنّ عدم رضا الإله معناه حلول الموت والقحط والجدب . كما ورد في الأساطير .[1].

شكلت أسطورة عشتار (عنوان النماء)، وأسطورة تموز (عنوان الخير والسعادة)، وأسطورة العنقاء (عنوان النفوذ والقوة)، وأسطورة المسيح (عنوان الصبر والطاعة)، شكلت كلّ تلك الأساطير وغيرها، سلطة فكرية ألقت بظلالها على شبكة النص الشعري، ودخلت في بنية لغته، حتى غدت الدوال محمّلة بطاقات فلسفية، ومُدركات معرفية متعددة :

أكاد أسمع العراق يذخر بالرعود

[1] ينظر : الأسطورة في شعر السياب، عبد الرضا علي : ١٥٠ – ١٥٤.

ويخزن البروق في السهول والجبال

حتى إذا ما فضّ عنها ختمها الرجال

لم تترك الرياح من ثمود

في الواد من اثر.[١]

إنّ حركة البنية الإيقاعية في بنية هذا النص، انتظمت في دائرة حيّة، وأجّجت بدورها حركة الدلالة، حتى كاد المتلقي يسجن بانسيابية الإيقاع من بداية النص حتى منتهاه.

ويظهر لنا نص (خليل حاوي) معاناة الموت والبعث، ويصور أزمة الذات والحضارة، والعلاقة بينهما، مشخصاً قضايا الحياة الإنسانية، ممسكاً الزمن بيد بالية مجوفة، تشكل الزمن باتجاهات سلبية ساكنة، لا يعرف فيها المرء سوى الانهزام النفسي واليأس، وقد اكتسبت تلك المعاني رمزية دواله من خلال : (العبث، الضياع، الموت، الانهزام، السجن، الجليد،...)، وتأتي قصيدته (الجليد، بعد الجليد) مثالاً بارزا على ما ذُكر :

من ترى زحزح ليل السجن عن صدري

طالما أدمت يدي جدران سجني

ردّ باب السجن في وجه النهار[٢]

والحاصل فيما ذُكِر : أنّ اللغة الشعرية قدّمت مُدركات معرفية، محمّلة بتصورات الناس عن قضايا عدّة منها : ما يتعلق بالإنسان، ومنها ما يتعلق بالكون والموجودات، وتصوراته للحياة وللموت ونحو ذلك، وأكدّت هذه المدركات تنوع المسارات المعرفية المشكِّلة لبنية اللغة الشعرية، التي ألقت بتأثيراتها في الآخر (المتلقي) من حيث تنوع آلية الاستقبال، وتكوين منازل للقراءة، منطلقة من مساءلة النص، واستنطاق مقاصده، ومعرفة توجهاته.

---

[١] ديوان بدر شاكر السياب، ديوان أنشودة المطر.

[٢] ديوان خليل حاوي، ديوان نهر الرماد : ٨٥ – ٩٨.

المصادر والمراجع :

ـ الأدب والأيديولوجيا، عمار بلحسن، مجلة المنار، القاهرة، العدد ٥٨ لسنة ١٩٨٥.

. الأسطورة في شعر السياب، عبد الرضا علي، وزارة الثقافة والفنون، سلسلة دراسات (١٤٧)، بغداد، ١٩٧٨.

ـ الأنثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية، محمد الجواهري، مطابع سجل العرب، القاهرة، ط١، ١٩٨٠.

. ديوان أبي العلاء المعري، دار صادر، بيروت، (د. ت).

. ديوان بدر شاكر السياب، ديوان أنشودة المطر، دار العودة، بيروت، الجزء الثاني، ١٩٧٤.

. ديوان خليل حاوي، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.

. رسائل ابن سينا، رسالة (العينية)، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧.

. سلطة الكلام وقوة الكلمات، أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، ملف :(اللغة والاتصال)، وزارة الثقافة المغربية، الرباط . المغرب، العدد ٦٢ – ٦٣ لسنة ٢٠٠١.

ـ شرح ديوان الحلاج (– ٣٠٩هـ)، تحقيق كامل الشبيبي، مكتبة النهضة، بيروت، ط١، ١٩٧٤.

. فلسفة اللغة، بول ريكور، ترجمة : علي مقلد، مجلة العرب والفكر العالمي، ملف : (الميتا – لغوي)، دار الإنماء القومي، بيروت، العدد ٨ لسنة ١٩٨٩.

. كيف يكون الإبداع الفلسفي إبداعاً لغوياً، طه عبد الرحمن، مجلة المناهل، ملف : (اللغة والاتصال)، وزارة الثقافة المغربية، الرباط . المغرب، العدد ٦٢ – ٦٣ لسنة ٢٠٠١.

ـ اللغة والسلطة والاتصال، محمد العلالي، مجلة المناهل، ملف : (اللغة والاتصال)، وزارة الثقافة المغربية، الرباط . المغرب، العدد ٦٢ – ٦٣ لسنة ٢٠٠١.

ـ المؤول والعلامة والتأويل، سعيد بنكراد، مجلة فكر ونقد، الدار البيضاء . المغرب، العدد ١٦ لسنة ١٩٩٩.

. مدخل إلى بنية اللغة الشعرية، علوي الهاشمي، مجلة البيان، الكويت، العدد ٢٨٤ لسنة ١٩٨٩.

ـ مدخل لدراسة النص والسلطة، عمر أورخان، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء . المغرب، ط١، ١٩٩١.

. نقد النقد : مدخل ابستمولوجي، محمد الدغمومي، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العدد ٦ لسنة ١٩٩٠.

Abstract

Degrees of Reading
Poetic Language as Epistemic Percepts

Muhammad S. Sa'dallah *

The present study tackles two parallel lines in textuality. The first line calls for dogmatic search in critiquing one's self. The second one calls for the chronological search that unfolds the meaning between the present and past. To put it more briskly, it investigates the gender of the signified and mentality of the signifier. This study affirms the necessary of scrutinizing some aspects of language generally and the poetic one specifically.

* Dept. of Arabic- College of Arts/ University of Mosul.